تهيئة الشعوب للاستعباد في عصر العولمة

محمد إبراهيم مبروك
مفكر إسلامي مستقل

ملخص الدراسة

عند تجاوز النظرة المعتادة للأبعاد السياسية لمسألة الهيمنة الغربية الأمريكية، على العالم إلى التعمق في الأبعاد الفلسفية والإنسانية لها يتكشف عند ذلك مدى بشاعة هذه الهيمنة وآثارها المدمرة على الإنسانية جمعاء.

إنها عملية استعباد تُمارَس على الشعوب لا نقول الفقيرة، ولكن «المستضعفة» وتتم تهيئة تلك الشعوب لهذا الاستعباد عبر «السياسة- الفكر- الاقتصاد- الإعلام»، فمن خلال هذه الوسائل تتم تهيئة الشعوب للانقياد.

لا يكاد يكون هناك موضع كبير للجدل في القول بأن الفكر البراجماتي هو الفكر القائد لعصر العولمة، وتفصيل ذلك أنه بنهاية الحرب العالمية الثانية، وانتقال مركز ثقل القوى الغربية لأمريكا؛ انتقل بدوره الفكر البراجماتي الأمريكي إلى مركز قيادة الفكر الغربي بوجه عام. وبسيادة هذا الفكر على العالم في عصر العولمة غدا الفكر القائد لهذا العصر.

ومما يعتاد قوله: إن الدول الرأسمالية الكبرى تسيطر على الاقتصاد العالمي بالطريقة التي تؤدي إلى استغلال الدول الفقيرة، من خلال آلية الاقتصاد الليبرالي الحر الذي يقود عصر العولمة.

لكن السؤال الذي قد يغيب عن الكثيرين هو: من الذي يقود هذه الدول إلى عملية الاستغلال هذه؟

إنها النخبة البراجماتية المسيطرة على اقتصاد هذه الدول الكبرى، والتي لا تعمل على استغلال شعوب الدول النامية فقط من خلال النخبة البراجماتية المسيطرة عليها، ولكن على الطبقات المتدنية من شعوبها ذاتها.

إن الأفكار البراجماتية تعني الصراع المستمر بين جموع اللاعبين الذين لا يبحثون سوى عن الربح أو المنفعة، دون النظر إلى أيّ مبدأ وقيمة أخرى؛ فإن نتائج هذه المسألة تكون أكثر بشاعة بالنسبة للدول الفقيرة عما يحدث في الدول الغنية؛ وذلك لأن حجم الربح أو المنفعة في تلك الدول أقل كثيرًا.

وفضلاً عن الاستنزاف الدائم لأموال أبناء الشعوب الإسلامية الغنية من خلال ألاعيب بورصات التجارة العالمية؛ فإن التركيز على أبناء هذه الشعوب يتم أولاً من خلال صناعة الحاجز العازل بينهم وبين الإسلام؛ والضغوط الإعلامية بأن الاقتراب من الإسلام يؤدي بهم إلى الاتهام بتهمة «الإرهاب»، وبذلك يتسنى لهم تشكيل عقول أبناء هذه الأمة من خلال القنوات الإعلامية الموجهة مخابراتيًا، والتي لا تنشر فقط الإباحية والفسق، ولكن تعمل بشكل مكثف على نشر العلمانية والإلحاد، وإعلاء قيم المنفعة والمفاهيم البراجماتية الأنانية، حتى سقط الكثيرون من أبناء هذه الشعوب في تخدير الإلهاء الشهواني الدائم.

تهيئة الشعوب للاستعباد في عصر العولمة

محمد إبراهيم مبروك
مفكر إسلامي مستقل

تمهيد:

أعتذر مبدئيًّا لكون هذه الدراسة قد تكون صادمة للغالب الأعم من القراء، ولا أقصد بهؤلاء القراء غيرَ المعادين للهيمنة الغربية الأمريكية على العالم فقط، بل أقصد أيضًا المعادين لهذه الهيمنة؛ لأنه عند تجاوز النظرة المعتادة للأبعاد السياسية للمسألة إلى التعمق في الأبعاد الفلسفية والإنسانية لها يتكشف عند ذلك مدى بشاعة هذه الهيمنة وآثارها المدمرة على الإنسانية جمعاء.

إنها عملية استعباد مستهدفة، تُمارَس على الشعوب لا نقول الفقيرة، ولكن «المستضعفة»، وتتم تهيئة تلك الشعوب لهذا الاستعباد عبر «السياسة- الفكر- الاقتصاد- الإعلام»، فمن خلال هذه الوسائل تتم تهيئة الشعوب للانقياد، حسب إرادة تلك الدول المتألهة، أو بتعبير أدق حسب إرادة النُّخَب القائدة المسيطرة عليها، كل ذلك تحت غلاف جميل من الشعارات البراقة: الحرية- المساواة- الديمقراطية- التقدم التكنولوجي- التجارة العالمية- تحوُّل العالم إلى قرية واحدة، أي ما يسمى عصر العولمة.

المزيج الفكري الذي يسود عصر العولمة:

اعتاد الباحثون أن يتحدثوا عن عصر العولمة -بعد سقوط المعسكر الشرقي وسقوط الماركسية والأيديولوجيات الاشتراكية الأخرى- بأنه عصر سقوط الأيديولوجيات، وإن كان فوكوياما استثنى من ذلك الإسلام والرأسمالية الليبرالية[1]. فإنه ليس من الدقيق فلسفيًّا وصف الرأسمالية الليبرالية بأنها أيديولوجية فكرية، فهي ليست سوى منظومة اقتصادية محددة، لا تستهدف غير الربح، وحتى الليبرالية كتيار سياسي؛ فإنها تعني إتاحة الحرية للتيارات السياسية والفكرية المختلفة، سواء كانت أغلبية أم معارضة دون توجيهها توجيهًا محددًا.

ولو أننا أقصينا الإسلام جانبًا الآن -وهو على العموم لا يصح وصفه بأنه أيديولوجية، وإن كان لا شك يحمل أيديولوجية موجهة-؛ فإنه يكون من الصحيح وصف عصر العولمة بأنه عصر سقوط الأيديولوجيات.

والوصف الآخر الصحيح أيضًا أنه هو عصر أيديولوجية السوق، وأقصد بذلك أنه صحيح مجازًا. وإذا كان المحور الأساس لأيديولوجية السوق هو البحث عن تحقيق الربح؛ فإن ذلك يتوافق تمامًا من الناحية العملية مع تحقيق المنفعة، وهي الغاية التي تستهدفها الفلسفة البراجماتية الأمريكية التي يتم فرضها على

---

(١) راجع كتابه: نهاية التاريخ.

العالم الآن، أي أن الأمرين: الليبرالية الاقتصادية، والبراجماتية الفلسفية وجهان لعملة واحدة، كما أشرت سابقًا.

ويبدو أن وليم جيمس الذي تنبأ في مطلع القرن العشرين بسيادة فلسفته البراجماتية على العالم في حوالي عقد من الزمان، كان يحتاج إلى قرن كامل لتحقيق هذه النبوءة، ولكن مع إقرارنا بأن الفلسفة البراجماتية هي الفلسفة القائدة لعصر العولمة؛ فلا شك أن هناك تيارات فكرية أخرى تشارك البراجماتية هذه القيادة، وإن كان بنحو أقل فاعلية، وأقل تأثيرًا، مثل النيتشوية، وما بعد الحداثة، والأصوليات الأسطورية، مثل اليمين المسيحي الجديد؛ ليتكون من كل ذلك مزيج فكري متداخل يقوده الفكر البراجماتي، وتضمن من خلاله النخب البراجماتية السيطرة على العالم، وتهيئة الشعوب للاستغلال والهيمنة والاستعباد.

البراجماتية كفكر قائد لعصر العولمة:

ما هو الفكر القائد لعصر العولمة؟ إنه نفس الفكر الذي قاد المعسكر الغربي قبل انهيار المعسكر الشرقي الذي كان يواجهه في مطلع التسعينيات من القرن الماضي، غاية ما في الأمر أنه بعد انهيار هذا المعسكر الأخير حلَّ هذا الفكر القائد للمعسكر الغربي محل الفكر الذي كان يقود المعسكر الشرقي أيضًا، أي أنه صار يقود العالم أجمع، ومن هنا جاء كونه مُعَوْلَمًا، أي تم تعميمه على العالم أجمع، ويأتي بعده ما صاحَب ذلك من تطور تكنولوجي في عالم الاتصالات والإنترنت؛ يسَّر القدرة على انتقال الأفكار والمعلومات بين أرجاء العالم، وإن كانت في الغالب الأعم تنتقل في اتجاه واحد، كما سنبين فيما بعد.

أما الجانب المتعلق بتعميم حرية التجارة، وانهيار الحواجز أمام تدفقات السلع والخدمات ورأس المال عبر الحدود، أو ما يعبَّر عنه بالبعد الاقتصادي للعولمة؛ فإن ذلك يندمج في تقديرنا هنا بالفكر القائد الذي تحدثنا عنه، وكما سنبين ذلك لاحقًا أيضًا.

لا يسعنا الحديث هنا لمناقشة مسألة أيهما يُقدَّم على الآخر: الفكر أم الاقتصاد؟ فهي مسألة فلسفية عميقة عتيقة يضيق المجال عنها، ولكننا سنجد أمام الحالة التي نحن بصددها والمتعلقة بعصر العولمة الذي نعيشه الآن أن كلا البعدين: الفكري والاقتصادي وجهان لعملة واحدة؛ فإذا كانت الغاية المستهدفة من البراجماتية هي المنفعة؛ فإن ذلك لا يكاد يختلف كثيرًا من الناحية العملية عن الغاية المستهدفة من الرأسمالية الاقتصادية، وهي الربح، وهذا ما سنبينه تفصيلاً فيما يلي.

لا يكاد يكون هناك موضع جدل كبير في القول بأن الفكر البراجماتي هو الفكر القائد لعصر العولمة، وتفصيل ذلك أنه بنهاية الحرب العالمية الثانية، وانتقال مركز ثقل القوى الغربية للولايات المتحدة الأمريكية؛ انتقل بدوره الفكر البراجماتي الأمريكي إلى مركز قيادة الفكر الغربي بوجه عام. وبسيادة هذا الفكر على العالم في عصر العولمة غدا الفكر القائد لهذا العصر.

ولا بد أن نقرر أولاً أن الفلسفة البراجماتية قد جاءت كفلسفة أمريكية في الأساس؛ لأنها الفلسفة التي تتسق مع أسلوب الحياة الأمريكي ذاته، أي أنها جاءت لتعبر عما هو واقع بالفعل، يقول في ذلك ويلسون آلن في كتابه «الثقافة الأمريكية»: «إذا كانت النظرة البراجماتية للحياة سائدة ومبتغاة في الولايات المتحدة بأسلوب أكثر انتشارًا، وأكثر صدقًا منه في أيّ مكان آخر في العالم الغربي؛ فقد كان لها السيطرة الحالية على أغلبية الأمريكيين لمدة طويلة قبل أن يحاول أحد وصفها بأسلوب الفكر المجرد»(٢).

ومن ناحية أخرى فإن وليم جيمس المُنَظِّر الأكبر لهذه الفلسفة قد وضع عنوانًا جانبيًّا لكتابه المسمى بنفس الاسم «البراجماتية» هو «معالجة جديدة لطرائق قديمة في التفكير»، وحقيقة ذلك أن البراجماتية تنطلق في الأساس من المزج بين فلسفتين قديمتين لهما

(٢) ويلسون آلن، الثقافة الأمريكية: ص ٢٤.

مكانة كبيرة في الفلسفة الإغريقية، التي تنطلق منها الحضارة الغربية بوجه عام، هاتان الفلسفتان هما الفلسفة السفسطائية التي ذهبت إلى أن الحق والباطل وجهان لعملة واحدة، والفلسفة الأبيقورية التي جعلت من اللذة المعيار الوحيد للفضيلة، فأخذت من الأولى نظرتها العبثية للكون، ومن الأخيرة نظرتها النفعية في التعامل مع الأشياء، ثم قدمت ذلك في أسلوب أكثر معاصرة وأكثر مرونة في التعامل مع النوازع الإنسانية المختلفة.

يقول وليم جيمس عن الاتجاه البراجماتي: «إنه اتجاه تحويل النظر بعيدًا عن الأشياء الأولية: المبادئ، النواميس، الفئات، الحتميات المسلَّم بها، وتوجيه النظر نحو الأشياء الأخيرة: الثمرات، النتائج، الإثارة الوقائع، الحقائق» [٣].

والبراجماتية «ليس لها أية عقائد يقينية أو جزمية، أو أية مذاهب أو مبادئ، اللهم إلا طريقتها ومنهاجها» [٤]، وأسماء مثل الإله، المادة، العقل المطلق لا نستطيع اعتبارها نهاية مطاف سعينا نحو الحقيقة؛ إذ يتعين على الإنسان من وجهة نظره أن يخرج من كل كلمة قيمتها النقدية الفورية العملية، وأن يُمرّسها على العمل بإظهار كيفيتها في نطاق مجرى خبرته، وعندئذ فهي لا تبدو حلاً بقدر ما تبدو برنامجًا أو منهاجًا للمزيد من العمل، «ومن ثم فإن النظريات تصبح أدوات ووسائل لا حلولاً لألغاز، ولا إجابات عن أحجية نستطيع أن نسكن إليها» [٥].

فنحن علينا أن نضع «كل المفاهيم المطروحة على بساط البحث على المحك البراجماتي، وسنفوز عند ذلك بالنجاة من الجدل الباطل العقيم. فإذا لم يكن ثمة فرق عملي بين قولين بالقياس إلى صحة هذا أو ذاك، إذن فالاثنان حقًّا عبارة واحدة في شكلين مختلفين، وإذا لم يكن ثمة فرق عملي يحدث، سواء كانت عبارة معينة صحيحة أو باطلة، إذن فالعبارة ليس لها معنى حقيقي.

وفي كلتا الحالتين فليس هناك شيء يستحق أن نتنازع من أجله. وأولى بنا أن نوفر جهدنا، ونمضي إلى أمور أكثر جدوى وأهمية، أي أن الحقائق ينبغي أن يكون لها نتائج عملية.

لقد كان الحق هو الغاية لكل الفكر الإنساني، لكن وليم جيمس جعل الحق هو مجرد وسيلة إلى الفوائد والمنافع، وهو بهذا لا ينفي عن الحق فقط أيّ معنًى مستقل، ولا يبرر فقط أيضًا الحصول على المنافع بإضفاء صفة الحق عليها، ولكن الأهم من ذلك كله أنه يخلط بين الحقائق والوسائل بطريقة تؤدي إلى تذويب الحقائق بشكل مطلق ونهائي.

البراجماتية «ليس لها أية عقائد يقينية أو جزمية، أو أية مذاهب أو مبادئ، اللهم إلا طريقتها ومنهاجها».
وليم جيمس - البراجماتية

ولا يختلف الأمر كثيرًا لدى جون ديوي (فيلسوف البراجماتية الآخر الأمريكي أيضًا) فالأفكار في نظر ديوي «لا تعدو أن تكون أدوات يستعين بها صاحبها لتحقيق التوافق مع البيئة، فالفكرة آلة نافعة تعين صاحبها على الحياة، والأفكار الفاشلة تؤدي بصاحبها إلى الهلاك. والأفكار لذلك هي هذه الأشياء والوسائل أو الذرائع التي يتلمسها الإنسان في حياته لتحقيق هذا التوافق» [٦].

وكما يقول جون ديوي: «فالحق هو ما يهدينا هداية ناجحة، والإمكانية المحققة في مثل هذه الهداية الناجحة هي على وجه الدقة ما نعنيه بكلمة الحق» [٧].

والمبرر الأساس لهذه الطريقة في التفكير هو كما يقول وليم جيمس: إن الأنماط المتعددة من التفكير كلها متعارضة، وليس فيها واحد على سبيل الحصر يستطيع أن يقيم الحجة على دعوى الصحة المطلقة، أفلا ينبغي أن يثير ذلك احتمالاً أو فرضًا أو ظنًّا، أو حدسًا مناصرًا بوجهة النظر البراجماتية، وعلى هذا الأساس فإنه يتساءل: ومادامت هذه الأنماط المتعددة من التفكير غير صحيحة، لكنها خدمت أغراضًا معينة

(٣) وليم جيمس، البراجماتية: ص ٧٦.
(٤) المرجع السابق: ص ٧٥.
(٥) المرجع السابق، ص ٧٤.

(٦) دكتور هاني محمد بخيت، البراجماتية الأمريكية المعاصرة، ص٦٧.
(٧) نقلاً عن المرجع السابق، ص٧٢.

لكم، فلماذا لا يثير ذلك -ولو حتى احتمالاً- مناصرًا لمقولتنا: إن الحقائق ينبغي أن تكون هي الوسائل التي نستطيع بها أن نصل إلى ما نريد.

أي أن الرجل يبدأ بموقف عبثي من الكون، وينتهي بنا إلى موقف عبثي أيضًا، ثم يقول لنا: إنه مادام الأمر كذلك فبدلاً من اليأس والمرارة والسأم، على كل منا أن ينتفع بما يريح نفسه ويجد فيه المنفعة واللذة، ولو بشكل مؤقت ومتغير، وعليه لكي يستريح تمامًا- كما يظن وليم جيمس- أن يعتقد أن ذلك الذي يفعله هو الحقيقة.

وكما يظهر من كلام الرجل؛ فإنه لا يؤمن بالحق أو الحقيقة أصلاً، ولا يبحث عنها، ولا يهمه في شيء أن يبحث عنهما، إنما يحاول فقط أن يقدم تبريرًا فلسفيًّا لكل من يعمل على ما ينفعه، ولكي يرضينا فقط، ويقوّي من عزيمة من يتفق معه في ذلك، فقد أطلق على هذه التبريرات لفظ الحقائق. ومن ثَم تكون خلاصة المذهب هي «البحث عن تبرير للمنافع كما يراها أصحابها في عالم يخلو من الحقائق، وقد أرهقه البحث عنها».

الموقف البراجماتي من الدين:

هنا يبلغ الغيّ البراجماتي مداه، ويحصد وليم جيمس الحصاد؛ فالدين الذي قُتل من أجله بلايين البشر على امتداد العصور، والذي يعتبر الموقف منه أهم ركيزة للإنسان؛ لا ينظر إليه وليم جيمس إلا على أنه محقّق لبعض المنافع، وأن قبوله مشروط بتحقق تلك المنافع وليس مهمًّا بعد ذلك الإيمان بالدين نفسه، مادام أن إرادة الاعتقاد فيه تكفي لتحقيق المطلوب، بل وليس مهمًّا الاعتقاد بدين معين، فأي دين يحقق النافع المطلوب منه يكون مقبولاً، وكل فرد يكون حرًّا في القيام بتجربته العقائدية التي يختار على أساسها الدين الذي ينفعه فليس من المهم لدى الرجل أن يكون الله ذا وجود أو لا وجود، ولكن المهم كما يقول: «أن نتمتع بإلهنا إذا كان لدينا إله»[8].

ثم إنه ليس من المهم لدى جيمس أن يكون الله واحدًا، أو أن تكون هناك آلهة متعددة؛ حيث يذهب إلى أن «فرض الشرك ليس أقل احتمالاً من فرض التوحيد، فلماذا لا نقول بوجود قوًى متعددة تحكم الكون».

وعلى ما سبق؛ فإن الإله المطلوب لدى جيمس يجب أن يكون «صديقًا ومعينًا ووفيًا وخادمًا، وقد يكون معزيًّا مقويًّا، وقد يكون منذرًا معاقبًا تبعًا لحالتنا وحاجتنا، وكما أنه هو خادم لنا فهو رفيق كثير المطالب دائب الحاجات؛ لأن ذلك يفرض علينا واجبات جديدة ومهمات كثيرة تبعث فيما حولنا جوًّا من العواصف والمخاطر، من شأنه دائمًا أن يشحذ هممنا، وأن يوقظ فينا أعلى الإمكانيات، وهو نفسه يستمد من ولائنا وإخلاصنا عظمة وجوده ومقدمات بقائه؛ لأنه إله متناهٍ هو نفسه جزء من العالم»[9].

ولأن الله عنده شخصية متناهية؛ فإنه لا يمكن أن يحيط بكل شيء، أو أن يعرف كل شيء، وليس في استطاعته أن يتمنى لنا خيرية العالم؛ لذلك فهو لا يفرض علينا طريقًا معينًا نكون ملتزمين أمامه أن نسير فيه، هذا فضلاً عن أنه هو نفسه ليس بقادر على كل شيء، ولكنه ليس إلا واحدًا من بين متعاونين كثيرين في وسط جمهرة من المتحكمين في هذا العالم. تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

ومن الواضح أن جيمس أراد أن يستخدم الدين استخدامًا نفعيًّا بحسب مذهبه، فقد استعاض عن الاعتقاد بالله بإرادة الاعتقاد فيه، على حد قول الفيلسوف الإنجليزي بريتر أندرسل، ولم يكتف بذلك بل إنه أراد أن يصنع دينًا وإلهًا «أو آلهة متعددة» بحسب ما يفضل بالهيئة والكيفية التي تخدم أغراضه هو، بل وبحسب ما يوحي به مزاجه المتغير، المهم فقط أن يمنحه ذلك الاعتقاد هو ومريديه الطمأنينة والسكينة، أو بقول أدق وأكثر تحديدًا يمكنهم من مواصلة حياة المنفعة واللذة التي يريدونها، وفي ذلك قمة العبث.

(8) وليم جيمس: البراجماتية: ص ١٣٧.

(9) زكريا إبراهيم، دراسات في الفلسفة المعاصرة، ص ١١٢.

السمات الأساسية للأفكار المابعد حداثية:



الفكر المابعد حداثي:

إذا كانت البراجماتية فلسفة تحايل وتكيّف مع الواقع المُعَاش؛ فإنه من نفس مضمون العجز الفلسفي الكامن في الفكر العلماني في أقصى تطوره الذي انطلقت منه الفلسفة البراجماتية انطلق اتجاه آخر مزاحم للفكر البراجماتي بعض الشيء هو اتجاه الأفكار المابعد حداثية.

فإذا كانت الحداثة مثّلت ثورة على الرؤى الدينية؛ فإن ما بعد الحداثة تمثل انعتاقًا عن الرؤى الدينية والأيديولوجيات الفلسفية معًا، فهي تمثل -كما يقول فيلسوفها البارز جان فرانسوا ليوتار-: «إمكانية التآكل الكامنة في نهج إضفاء المشروعية على الآخر، وهو جهاز الانعتاق المنبثق عن التنوير». (١٠)

فما بعد الحداثة تحمل من الحداثة الذات المنقسمة المفتتة، لكنها تمحو كل مسافة نقدية منها، فهي ضد الضد؛ حيث يكون ذلك لشيء أساس هو عدم إمكانية المعرفة، ومن ثَم فهي ضد الاستلاب؛ لأنه لم يعد ثمة ذات لتُستَلب، ولا شيء يجري الاستلاب عنه، والأصالة لم تُرفَض بقدر ما نُسِيَت ببساطة.

واهتداء بنيتشه فقد قلب فوكو رأسًا على عقب النظرة الدارجة عن العلاقة بين القوة والمعرفة؛ حيث يقول إيان كريب في كتابه «النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابر ماس»: «إذا كانت القوة هي الدافع لفعل أشياء لم يكن باستطاعتنا القيام بها من دونها؛ فإن فوكو يرى أن المعرفة هي في ذاتها قوة تمارسها على الآخرين؛ لتحدي الآخرين، أي أن المعرفة ما عادت أداة للتجريد بل أصبحت أداة للاستعباد» (١١).

ولأننا لا نستطيع أن نذكر هنا التوجهات أو الأبعاد المختلفة للأفكار الما بعد حداثية؛ فإننا نذكر أهم سماتها الأساسية التي تتلخص في:

عدم إمكانية المعرفة- فقدان اليقين- فقدان المعنى- فقدان الجدوى- الذات المنقسمة- التشرذم- الانحلال والتشظي.

وقد لا يكون لهذه الفلسفات نصيب كبير من الأتباع خارج الأكاديميات العلمية وخواص المثقفين والفنانين، ولكننا سنرى (ويا للعجب في ذلك) أن هذه الأفكار تمثل الآن واقعًا عمليًا لشرائح عديدة من الشعوب الإسلامية الفقيرة في عصر العولمة، بعد أن كانت مجرد أفكار تنظيرية لبعض الفلاسفة الغربيين.

الارتداد إلى الأصوليات الأسطورية:

وكما رأينا فيما سبق بالنسبة للبراجماتية وما بعد الحداثة؛ أننا أمام موقفين فلسفيين مختلفين ناجمين عن بلوغ النسق الفلسفي الغربي العلماني العجز الكامل في الإجابة عن الأسئلة المصيرية الباعثة على القلق الإنساني؛ بعد إجهاده تمامًا عبر مسيرة التطور الحضاري: موقف تحايلي يقدم الإلهاء الحسي المتواصل بديلاً عن البحث

(١٠) ما بعد الحداثة، مجموعة دراسات، أحمد حسان، ص ٥٦.

(١١) إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابر ماس، ص ١٠٨.

الفلسـفي، وبذلك يتم تكريس الوعي الغربي في اللهاث وراء رغبات تتجدد على الدوام، ولا يمكن تلبيتها أبدًا، وهذا هو الموقف البراجماتي.

والموقف الثاني موقف جـادّ صريح مع النفس، يعترف بهـذا العجز، ويستسـلم لـه بما يحمله ذلك من تشـرذم وانهيار وعدم جدوى، وهذا هو الموقف الما بعد حداثي.

وهـذا يعني أنه مع الافتراض الطبيعي بوجود قلقين في هـذا الموقـف الما بعـد حداثي؛ فإن ذلك قـد يدفعهم إلى البحث عن الحقيقة في نسق آخر غير النسق العلماني.

أي أن الموقف المابعد حداثي بما يمثله من نقطة نهائية للنسـق العلمانـي قد يكون هـو المعبر الـذي تنتقل إليه العقول الغربية إلى أنساق فكرية أخرى [١٢].

وهـذا ما حدث بالضبط، وهو ما يفسـر تبني الكثير مـن هـذه العقول للأنسـاق الدينيـة البديلة. فـإذا كان الإسـلام يتقدم في الغرب تقدمًا مذهـلاً؛ فإنه قد حدث أيضًا توجيـه الكثير من الغربيـين إلى تبني الأصوليات الأسطورية، مثل اليمين المسيحي الجديد.

وفي الحالـة الـتي نحـن بصددهـا في العصـر الحالي (الولايـة البوشـية الأمريكيـة) تم تحالـف النُّخَـب البراجماتية مع هذا اليمين المسـيحي الجديد (المتحالف مع الجمهوريين) تحت قيادة جورج بوش الابن (المتعاطف على الأقل مع هذا التيار ضد شـعوب العالم المستضعفة التي يتم سـحقها كل يوم تحت قيـادة هذا الرجل الذي يقول عن نفسه أنه يأتمر بإرشادات المسيح.

النيتشوية:

يـرى بعـض الباحثـين في فلسـفة نيتشـه اسـتباقًا للبراجماتية، فكلاهما يشـترك في الحملـة على العقل الخالص، وردّه إلى المقتضيات الحيوية للإنسـان، كما أن الوجـه السـلبي للبراجماتيـة المتمثل في نقد الأسـس الميتافيزيقيـة القديمـة يكاد يكون ترديدًا لآراءٍ سـبق ظهورهـا عـن نيتشـه... علاوة علـى أن نظريـة الحقيقة عند نيتشـه تشبه نظرية البراجماتية؛ فالحقائق من صنع الإنسان، ومقياس صحة الأفكار هو نفعها أو صلاحيتها للعمـل، ومن هنا كان تغير الحقائـق بتغير المواقف وما يصلح لكل منها، فاختفت الحقيقة الثابتة [١٣].

أمـا أهم نقـاط الخلاف بين الفلسـفتين فهـي ثلاث: الأولى تتعلـق بنظريـة (موت الإله عند نيتشـه)، ومن ثم إنهاء العلاقة تمامًا بالدين.

والثانية نظرية «الإنسـان الأعلى أو السـوبرمان» وهي تعني -فيما تعني- تعالي الإنسـان عما هو متاح، وابتداع رغبـات وطموحات تتفوق على الدوام على ما اعتاد عليه البشـر، والسـعي إلى تحقيقها بكل قوة دون النظر إلى أيّ اعتبار آخر.

والثالثـة تتعلق بنظريـة إرادة القوة؛ حيث يرى نيتشـه «أننـا إرادة قوة، وأن كل ما هو إنسـاني وحيواني مفعم بالحيوية والنشاط يعبر هو الآخر عن إرادة القوة» [١٤].

ومـن الناحية السياسـية العمليـة يشـير الباحثون إلى تأثير هذه الفلسـفة في فكر ألمانيا النازية، وفكر تيار المحافظـين الجـدد المعاصرين، ويمكن الإشـارة أيضًا بكل وضوح في تمثلها -ولا أقول تأثيرها- في الممارسات الإسـرائيلية علـى الواقـع العربي، بل وأكثـر من ذلك تمثلهـا في واقع الشـعوب المسـتضعفة من خـلال النخب المتحكمـة فيها، والـتي لا تتورع عن اتخـاذ القوة معها بأية قواعد أو قيم.

والغريـب في الأمر -وهو ليس غريبًا في هذا العصر- أن هناك قناة فضائية عربية تروّج لهذه الفلسفة، وتدعو إليها ليل نهار من خلال إعلان دائم يتخلل بثها ولا يكاد ينقطع؛ يظهر فيه شـخص بهيئة (السوبرمان) تمامًا يقوم بالتعدي على الآخرين بعنف وقسوة بالغة، بزعم الرغبة في القضاء على الملل، وهو ما يعبّر عن صميم الفلسفة النيتشوية.

(١٢) راجع محمد إبراهيم مبروك، الإسلام والغرب الأمريكي، نظرية في تفسير الصراع، ص ٢٩١.

(١٣) راجع فؤاد زكريا، نيتشه محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه، نقلاً عن دكتوره وفاء عبد السلام علي جعفر، ص ٤٥- ٤٦.

(١٤) محمـد إبراهيـم مبروك، نقـد المذاهب المعاصرة، فصل النيتشـوية، كتاب تحت الطبع.

الظاهر الماسوني المستخدم:

نظرًا لأن الماسونية ما هي إلا منظمة سرية في الأساس يكتنفها الكثير من الغموض والأسرار، خصوصًا فيما يتعلق بمنشئها التاريخي، والقوى المحركة لها؛ فإن تعريفها يختلف باختلاف المنظور الذي ينطلق منه هذا التعريف، ومن أهم النظريات التي تتحدث عن أصل الماسونية تلك النظرية التي ترجع بها إلى بناة الأحجار في العصور الوسطى، أو إلى الأديرة القديمة أو هيكل سليمان.

وهناك نظرية لا تكتفي بهذا بل تعود بها إلى نوح أو إلى آدم.

ونظرية أخرى تقول: إنها نتاج فرسان الهيكل بعد قمع هذه الجماعة عام ١٣١٢م.

> **الماسونية منظمة سرية تحمل شعارات الحرية والإخاء والمساواة، وتحقيق التعاون بين البشر، في نفس الوقت الذي تمارس فيه طقوسًا سرية غامضة، وينسب إليها العديد من المؤامرات التاريخية.**

وهناك من يقول: إنها مستمدة من الآثينيين [١٥]، أما أشهر هذه النظريات جميعًا خصوصًا في العالم الإسلامي فهي أنها جاءت من تدبير اليهود، ليتمكنوا من ورائها من حكم العالم بشكل خفيّ، وتعود تاريخيًّا -بحسب المنتسبين إليها- إلى جماعات عمال البناء السرية في العصور الوسطى، أو قبل ذلك بكثير.

وعلى الأسس السابقة؛ فإن التعريف العام للماسونية الذي قد يجمع النظريات السابقة هو أن: الماسونية منظمة سرية تحمل شعارات الحرية والإخاء والمساواة، وتحقيق التعاون بين البشر، في نفس الوقت الذي تمارس فيه طقوسًا سرية غامضة، وينسب إليها العديد من المؤامرات التاريخية كالثورة الفرنسية، والبلشفية والأتاتوركية، ويُتَّهم اليهود بإدارتها من وراء الستار.

أيًّا ما كان الأمر؛ فإن ما يهمنا في الموضوع هو تلك الشعارات التي ترفعها الماسونية في الظاهر: الحرية والإخاء والمساواة، أضف إلى ذلك -وقبل كل ذلك- الأسس الفكرية المعلنة: العلمانية غير الملحدة- احترام الله كمهندس أعظم للكون- التسامح مع أي دين.

يقول الواعظ الماسوني الأشهر جيمس أندرسون في كتابه «الدساتير» صدر عام ١٧٢٣م: «إن الماسوني كان يُلَقَّن ألا يكون كافرًا غبيًّا، وألا يكون مفكرًا حرًّا غير متدين [١٦] وأن يحترم السلطات المدنية، وألا يشترك في الحركات السياسية، ولأن الماسونيين رفضوا المعتقدات الكنسية الجامدة فهم يحترمون الله كمهندس أعظم للكون، ويتسامحون مع أي دين» . [١٧]

وأيًّا كان الأمر في حقيقة الماسونية؛ فإن ما يهمنا هنا هو الظاهر الماسوني المتعلق بشعاراتها (الحرية المساواة - الإخاء - التسامح الديني)؛ حيث يستخدم هذا الظاهر كرداء جميل تختبئ وراءه كل الدعوات والمخططات الإجرامية لأصحاب المصالح المختلفة. ويُعد وصمة إعلامية تتردد صباحًا ومساءً في القنوات الفضائية ليمرر من خلالها الغزو الفكري والثقافي والاقتصادي، والدعوات الإباحية والهدامة.

كما أن المنظور الماسوني لله كمهندس أعظم للكون يتوافق إلى حد كبير مع المنظور البراجماتي لله كإله محدود، لا يوجب التزامات محددة. تعالى الله عن ذلك.

أما النفاق بالحديث عن الحرية والإخاء والمساواة؛ فيعبر عنه تمامًا حديث سيدة أمريكا الأولى -زوجة بوش الابن- في المؤتمر الانتخابي للجمهوريين في سبتمبر ٢٠٠٨م عن إنجازات الحزب الجمهوري في منح الحرية لخمسين مليون إنسان هم عدد سكان العراق وأفغانستان!!

أليس ذلك جنونًا أم حقيقة براجماتية؟ أم هما الاثنان معًا.

(١٥) وزمان ماكنزي في كتابه «الجمعيات السرية»، راجع في تفسير منشأ الماسونية، ص ٢٢.

(١٦) نتحدث هنا عن ظاهر الماسونية المعلن؛ لأنها في الحقيقة سميت بذلك بحسب المنضمين إليها.

(١٧) الموسوعة السوفييتية الكبرى عام (١٩٧٧م)، نقلاً عن د. علي شلش، تاريخ الماسونية في مصر: ص ٤٣.

السيطرة الاقتصادية:

مما يعتاد قوله أن الدول الرأسمالية الكبرى تسيطر على الاقتصاد العالمي بالطريقة التي تؤدي إلى استغلال الدول الفقيرة، ونهب مواردها من خلال آلية الاقتصاد الليبرالي الحر الذي يقود عصر العولمة.

لكن السؤال الذي قد يغيب عن الكثيرين هو: من الذي يقود هذه الدول إلى عملية الاستغلال هذه؟

إنها النخبة البراجماتية المسيطرة على اقتصاد هذه الدول الكبرى، والتي لا تعمل على استغلال شعوب الدول النامية فقط من خلال النخبة البراجماتية المسيطرة عليها، ولكن على الطبقات المتدنية من شعوبها ذاتها. المهم أنه يتم في النهاية سحق الجماهير الغفيرة من مجتمعاتنا في طاحونة الاقتصاد الليبرالي العالمي، ومن ثم إلهاؤها التام عن كل ما يخرج عن نطاق ذواتها المتعلقة على مجرد البحث عن كفاحها اليومي، ومن ثم استسلامها التام لدائرة الاستعباد العالمي.

ولكن القصة طويلة وعميقة، ونبدأ شرحها بإيضاح ما نعنيه بهذه النخبة البراجماتية الاقتصادية.

يقول الدكتور إسماعيل صبري عبد الله في هذا الصدد: «مازال المشتغلون بالسياسة وأفكارها حبيسي مفهوم أن المجتمع الدولي مكون من حكومات مستقلة ذات سيادة وأعضاء في الأمم المتحدة، وتتفاوت بطبيعة الأحوال أوزان هذه الحكومات، وتدخل في صراعات وتحالفات، وللدول الكبرى نصيب الأسد في إدارة شئون العالم وفي الصراع على من يتولى القيادة فيه، ومن هنا سال كثير من المداد في مقالات وكتب عن العالم ذي القطبين الذي صار عالمًا واحدًا. وواقع الأمر أن القوى الفاعلة في هذه التطورات هي في التحليل الأخير الشركات متعددة الجنسيات»(١٨).

ولا خلاف لنا مع هذا التحليل سوى أن هذه القوى ليست القوى الفاعلة الوحيدة كما يقصد ذلك الماركسيون، وإنما هو تحالف براجماتي بين النخب السياسية والاقتصادية والإعلامية المسيطرة، كما سنبين فيما بعد.

إن الدخول لتلك الدائرة الاقتصادية العولمية يتطلب قيام حكومات الدول بقبول برنامج التكييف الهيكلي التي تمليها عليها المؤسسات الثلاث الكبرى التي تدير الاقتصاد العالمي: صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية. وليس من المهم فقط أن تقبل الدولة برنامج التكيف، بشروطه وسياساته المعروفة، وما تنطوي عليه من تكاليف اجتماعية باهظة حتى يقبل رأس المال الأجنبي الانسياب إلى البلد «بل يجب أن يتأكد أصحاب رأس المال أنه لن يحدث تراجع عن تلك السياسات؛ مما يتطلب أن يكون هناك ما يراه ضروريًّا لضمان ضبط العلاقات الاجتماعية في ضوء ما رسمته هذه البرامج.

الدول الرأسمالية الكبرى تسيطر على الاقتصاد العالمي بالطريقة التي تؤدي إلى استغلال الدول الفقيرة، ونهب مواردها من خلال آلية الاقتصاد الليبرالي الحر الذي يقود عصر العولمة.

ومن هنا تأتي أهمية إيجاد تحالفات اجتماعية تستفيد من هذه البرامج، وتشكل قاعدة سلطة الدولة، ويكون لها مصلحة في استمرار تنفيذ تلك البرامج. وهنا يذكر البنك الدولي صراحة أنه «ربما يتوقف نجاح تدبير التكيف على إمكان قيام ائتلافات من المستفيدين». المسألة إذن ليست مجرد حزمة من السياسات الاقتصادية التي تؤثر في المتغيرات الاقتصادية، إنما الأهم من ذلك بكثير هو التأثير في العلاقات الاجتماعية، وبالذات إبقاء مستوى الأجور منخفضًا، وإيجاد شرائح اجتماعية تستفيد من حزمة هذه السياسات، وتعتمد عليها سلطة الدولة». (١٩)

إن الدخول في الدائرة الاقتصادية الاستعبادية العولمية لن تترك شرحها لهذا أو ذاك من الإسلاميين الموصومين بالإرهاب، أو لأولئك الاشتراكيين الذين يمثلون الجبهة

(١٨) د.إسماعيل صبري عبد الله، الكوكبة والتنمية المستقلة: ص ٤٧.

(١٩) د. رمزي زكي، الليبرالية المتوحشة، ص ٢٤٥.

الفكرية الاقتصادية المضادة للرأسمالية الليبرالية التي تقود العولمة الاقتصادية الاستعبادية، ولكن سنترك ذلك لواحد من أهم أساطينها الدكتور ستبينجلر الأكاديمي المعروف والنائب السابق لرئيس البنك الدولي، يقول: «إن الهوة المتزايدة بين من يملكون ومن لا يملكون قد تركت أعدادًا في العالم الثالث في فقر رهيب؛ حيث يعيش الفرد بأقل من دولار في اليوم، بالرغم من الوعود المتكررة التي قُطعت على امتداد العقد الأخير من القرن العشرين بخفض الفقر؛ فإن العدد الفعلي لمن يعيشون في الفقر زاد حاليًا بحوالي ١٠٠ مليون. حدث ذلك في الوقت الذي زاد فيه فعلاً إجمالي الدخل العالمي بنسبة ٢,٥٪ سنويًا في المتوسط» [٢٠].

هل تكللت جهود مؤسسات العولمة بالنجاح في دول المجتمع النامي؟

يقول ستبينجلر في ذلك: «إن في كل مظهر من مظاهر العولمة، وليس فقط في مجال تحرير التجارة، لم تكلل الجهود -وإن بدت حسنة النية- بالنجاح، بل أظهرت نتائج عكسية، وعندما فشلت مشروعات زراعية أو بنية تحتية زكاها الغرب، وقام مستشارون غربيون بوضع تصميمها وموَّلها البنك الدولي أو آخرون؛ فإن الشعب الفقير في العالم النامي يظل مطالَبًا بتسديد القروض، إلا لو كان هناك شكل من أشكال إسقاط الدين»[٢١].

أما بالنسبة لروسيا والدول الاشتراكية :

فـ«إن العولمة وإدخال اقتصاد السوق لم يحقق النتائج الموعودة في روسيا، وأغلب الاقتصاديات الأخرى التي تقوم بعملية التحول من الشيوعية إلى اقتصاد السوق.

لقد قال الغرب لهذه الدول: إن النظام الاقتصادي الجديد سيجلب لهم رخاءً اقتصاديًّا غير مسبوق، وبدلاً من ذلك فقد جلب لهم فقرًا غير مسبوق. لقد أثبت اقتصاد السوق من نواحٍ كثيرة بالنسبة لأغلب الناس أنه أسوأ مما تنبأ به زعماؤهم الشيوعيون.

(٢٠) جوزيف ستبينجلر، ضحايا العولمة ص ٢٥.
(٢١) المرجع السابق ص ٢٨.

إن التناقض بين التحول في روسيا الذي وضعت هندسته المؤسسات الاقتصادية الدولية، والتحول في الصين الذي وضعت الصين تصميمه بنفسها، لا يمكن أن يكون أكبر من ذلك» [٢٢].

والأكثر من ذلك أن مجموعة السياسات التي يقدمها صندوق البنك الدولي الآن تخالف تمامًا مجموعة الأفكار الكنزية التي قام على أساسها، ولكنها تضمن دفع الدول النامية على العمل ضد طبقاتها الفقيرة، فكما يقول ستبينجلر: «بمرور السنوات تغير الصندوق بشكل ملحوظ عما كان في بدايته، لقد تأسس على عقيدة أن الأسواق تعمل غالبًا بشكل سيئ، في حين أنه الآن يدافع عن سيادة السوق، بحماسة أيديولوجية.

لقد تأسس على عقيدة أن هناك حاجة لضغط دولي على البلدان، لكي تكون لها سياسات اقتصادية وتصحيحية أكثر مثل زيادة الإنفاق، أو خفض الضرائب، أو خفض معدل الفائدة، ولتحفيز الاقتصاد- حاليًا لا يقدم صندوق النقد الدولي أموالاً، إلا إذا بدأت الدول في تطبيق سياسات، مثل خفض العجز في الموازنة، أو زيادة الضرائب، أو زيادة معدل الفائدة، مما يؤدي إلى انكماش الاقتصاد. إن كينز قد يتقلب في قبره لرؤيته ما حدث لابنه» [٢٣].

حتى بعض المكاسب التي من الممكن أن تكون قد حققتها العولمة؛ فإنها لا تتكافأ على الإطلاق مع الثمن الذي دُفع فيها.

«إن كانت مكاسب العولمة في العديد من الأمثلة أقل مما ادعى أنصارها؛ فإن الثمن الذي دُفع كان أكبر؛ حيث تم تدمير البيئة وإفساد العقليات السياسية، كما أن معدل شرعية التغيير لم يُتِح للبلدان الوقت للتكيف الثقافي. إن الأزمات التي جلبت في أعقابها بطالة كثيفة تبعتها بدورها مشكلات التحلل الاجتماعي طويل المدى». [٢٤]

(٢٢) المرجع السابق: ص ٢٦.
(٢٣) المرجع السابق ص ٢٨.
(٢٤) المرجع السابق: ص ٣٣.

لصالح من تتم هذه السيطرة الاقتصادية العولمية؟

لنقل أولاً: إنها لصالح الدول الكبرى الغنية، فكما يقول ستبينجلر: «من الممكن أن تكون المؤسستان قد أمدتا بلدانًا ما بوجهات نظر اختيارية، بالنسبة لبعض تحديات التنمية والتحول، وبفعل ذلك تكونان قد دعمتا العمليات الديمقراطية، لكن كان كلاهما مدفوعين بالإرادة الجماعية للسبعة الكبار (حكومات أهم سبع دول متقدمة)، وخاصة وزراء ماليتهم ووزراء خزانتهم، وفي أغلب الأحيان يكون آخر ما يريدونه هو نقاش ديمقراطي حول الاستراتيجيات البديلة» [٢٥].

لكن ستيبنجلر يشرح المشكلة بشكل أعمق، فيبرز كيف تتم هذه العولمة الاقتصادية الكبرى ليس لصالح الدول الغنية فقط، ولكن لصالح النُّخَب المسيطرة على مؤسساتها الاقتصادية تحديدًا، يقول ستبينجلر في ذلك: «إن أساس مشكلات صندوق النقد الدولي والمؤسسات الاقتصادية الدولية الأخرى هو التوجيه والسيطرة: أي من الذي يقرر ما تفعله هذه المؤسسات.

إن من يسيطر على هذه المؤسسات ليس أغنى البلدان الصناعية وحدها، لكن المصالح التجارية والمالية في تلك البلدان أيضًا، ومن الطبيعي أن تنعكس سياسات هذه المؤسسات على ذلك، ويرمز اختيار رؤساء هذه المؤسسات للمشكلة التي تعاني منها، بل إن ذلك الاختيار يساهم في اختلالها الوظيفي في أغلب الأحيان، فبينما تتركز حاليًا كل أنشطة صندوق النقد والبنك الدوليين تقريبًا في العالم النامي (كل إقراضها بالطبع)، نجد أن ممثلي الدول الصناعية هم الذين يتولون قيادتها (بمقتضى عرف أو اتفاق ضمني، يكون دائمًا رئيس صندوق النقد الدولي أوروبيًا، ورئيس البنك الدولي أمريكيًا).

ويتم اختيارهم وراء أبواب مغلقة، بل ولا يشترط لتولي الرئاسة أن يكون للمرشح صلة بأية تجربة في العالم النامي. إن هذه المؤسسات لا تمثل الأمم التي تخدمها» [٢٦].

«وتنشأ المشكلات أيضًا من حقيقة «من الذي يتكلم عن بلد ما في صندوق النقد الدولي؟» يتولى ذلك وزراء المالية، ومحافظو البنوك المركزية، أما في منظمة التجارة العالمية فيتولى هذه المهمة وزراء التجارة، ويرتبط كل واحد من هؤلاء الوزراء ارتباطًا وثيقًا بمجموعة من أصحاب المصالح الخاصة «داخل» بلادهم.

وبالتالي يعكس وزراء التجارة اهتمامات مجتمع رجال الأعمال: المصدرون الذين يريدون رؤية أسواق جديدة تُفتَح أمام منتجاتهم، كذلك منتجو السلع الذين يتنافسون مع الواردات الجديدة، بالطبع يريد أصحاب هذه المصالح الخاصة الحفاظ على أكبر قدر ممكن من الحواجز أمام التجارة، والاحتفاظ بأي قدر من الدعم يستطيعون إقناع الكونجرس (أو برلماناتهم) بمنحه لهم.

ولا تحظى حقيقةُ أن الحواجز التجارية ترفع الأسعار التي يدفعها المستهلكون، أو كون الدعم يفرض أعباءً على دافعي الضرائب، إلا باهتمام ضئيل؛ مقارنة بمكاسب المنتجين – كما تحظى قضايا البيئة وقضايا العمل باهتمام أقل بكثير، باستثناء اعتبارها عقبات يتعين التغلب عليها، ويرتبط وزراء المالية ومحافظو البنوك المركزية ارتباطًا وثيقًا بالمجتمع المالي، فهم يأتون من شركات مالية، وبعد انتهاء فترة خدمتهم الحكومية، يعودون إلى تلك الشركات.

إن وزير الخزانة الأمريكي خلال أغلب الفترة المذكورة في هذا الكتاب روبرت روبن جاء مثلاً من أكبر بنك استثماري SACHSGALDMAN ، وذهب إلى شركة سيتي جروب التي تسيطر على أكبر بنك تجاري «سيتي بنك». والرجل الثاني في صندوق النقد الدولي خلال تلك الفترة ستان فيشر ذهب مباشرة من الصندوق إلى سيتي جروب، ومن الطبيعي أن يرى هؤلاء الأشخاص العالم من خلال عيون الجماعة المالية، ومن الطبيعي أيضًا أن تعكس قرارات أية مؤسسة وجهات

(٢٥) المرجع السابق ص ٢٩.

(٢٦) المرجع السابق ص ٣٥.

نظر ومصالح أولئك الذين يتخذون القرارات، ولا يوجد ما يدعو للدهشة عندما نجد أن كل سياسات المؤسسات الاقتصادية الدولية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالمصالح التجارية والمالية لتلك الجماعات في البلدان المتقدمة»(٢٧) .

وهكذا يلخص ستبينجلر هذه السيطرة العالمية التي تربط بين النخب الاقتصادية للدول الغنية والنخب الاقتصادية للدول للمستضعفة تلخيصًا تامًّا في الفقرة التالية «للأسف ليس لدينا حكومة عالمية مسئولة أمام شعب كل بلد، تشرف على عملية العولمة بطريقة مشابهة للطريقة التي قادت بها الحكومات الوطنية عملية تشكيل الاقتصاديات الوطنية، لدينا بدلاً من ذلك نظام يمكن تسميته «سيطرة عالمية بدون حكومة عالمية»، نظام تسيطر على الساحة فيه منظمات معدودة (البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية) وعدد قليل من اللاعبين (وزراء المالية والتجارة المرتبطون ارتباطًا وثيقًا ببعض المصالح المالية والتجارية) غير أنه في ظل هذا النظام لا يملك عمليًّا العديدُ من البشر ممن يتأثرون بقراراته حق الكلام»(٢٨).

على الرغم من التسليم العام بالأثر الكبير لوسائل الإعلام في توجيه الشعوب، سواء كان هذا التسليم من جانب المثقفين أو عوام الناس؛ فإن الكثيرين من هؤلاء وهؤلاء مازالوا لا ينتبهون إلى أن هذا التأثير يكاد يبلغ حد السيطرة التامة

السيطرة الإعلامية:

وعلى الرغم من التسليم العام بالأثر الكبير لوسائل الإعلام في توجيه الشعوب، سواء كان هذا التسليم من جانب المثقفين أو عوام الناس؛ فإن الكثيرين من هؤلاء وهؤلاء مازالوا لا ينتبهون إلى أن هذا التأثير يكاد يبلغ حد السيطرة التامة؛ فالمسألة لا تقف عند حد التأثير على سلوكيات الناس، والتلاعب في القيم الموجهة لهم، ولكن تتجاوز ذلك إلى التحكم في تحديد التصورت والمعتقدات الموجهة لهم. يقول في ذلك عالم الاتصالات الشهير هربرت.أ. شيلر في كتابه الشهير «المتلاعبون بالعقول»: «يقوم مديرو أجهزة الأعلام في أمريكا بوضع أسس عملية تداول الصور والمعلومات، ويشرفون على معالجتها وتنقيتها، وإحكام السيطرة عليها، تلك الصور والمعلومات التي تحدد معتقداتنا ومواقفنا، بل وتحدد سلوكنا في النهاية» (٢٩) .

فالسيطرة السياسية تعتمد أساسًا على السيطرة الإعلامية، وإنه «يتعين فهم الأمة بوصفها نظامًا اتصاليًّا» (٣٠).

ويشرح هربرت شيلر عملية السيطرة الإعلامية في كتاب آخر هو «الاتصال والهيمنة الثقافية» فيقول: «حالما تبدأ عملية السيطرة؛ فإنها تمتد إلى جميع الشبكات المؤسسية في المجتمع الذي يخضع لها، وبما أن البنية الأساسية لمؤسسات التنشئة الاجتماعية وثيقة الترابط والتشابك؛ فإن توقف تيار في إحدى القنوات سرعان ما ينتقل إلى غيرها أو يسعى إلى أن يجد فيها دعمًا له»(٣١).

ولكن ما الذي يحدث بالنسبة للنُّخَب السياسية والإعلامية المهيمنة عند إدخال مجتمع ما إلى النظام العالمي الحديث؟ يقول شيلر في ذلك: «تتم استحالة الطبقة المهيمنة فيه، والضغط عليها، وإجبارها ورشوتها أحيانًا، كي تشكل المؤسسات الاجتماعية في اتساق مع قيم المركز المهيمن في النظام وبنائه، أو حتى الترويج لها». (٣٢)

أما بالنسبة لوسائل الإعلام العامة كالإذاعة والتليفزيون؛ فإنها تحتل مركز الصدارة في المشروعات العاملة التي تستخدم في عملية التغلغل. ومن أجل تحقيق درجة كبيرة ومهمة من التغلغل، فلا بد من أن تستحوذ القوة المهيمنة المتغلغلة على وسائل الإعلام ذاتها، ويتم

(٢٧) المرجع السابق ص ٣٩ - ٤٠.
(٢٨) المرجع السابق: ص ٤٢.

(٢٩) هربرت.أ. شيلر، المتلاعبون بالعقول، ص ١٢٤.
(٣٠) هربرت شيلر، الاتصال والهيمنة الثقافية.
(٣١) المرجع السابق: ص ٢٤ -٢٥.
(٣٢) المرجع السابق: ص ٢٥.

ذلك بقدر كبير عن طريق إضفاء الطابع التجاري على الإذاعة والتليفزيون»[٣٣].

ويقول شيلر عن دور الشركات متعددة الجنسية في تلك السيطرة الإعلامية:

«تنظم هذه الإمبراطوريات التجارية العدوانية السوقَ العالمية بأفضل ما تستطيع، وإن كان ذلك يتوقف بطبيعة الحال على القيود القانونية الوطنية المتفاوتة والجزئية، والتي كثيرًا ما تكون أقل مما يمكن، وعلى المستويات المختلفة للتطور الاقتصادي في المناطق التي تنشط فيها، وأثناء قيامها بتعزيز أهدافها ضمانًا للأسواق العالمية، وعدم عرقلة الحصول على الأرباح تضطر إلى التأثير والهيمنة -ما أمكن- على كل مجال ثقافي إعلامي يبعدها عن السيطرة الكاملة على بيئتها العالمية- الوطنية، ولا يعد هذا الأمر ضرورة في المدى القصير، بل هو شرط دائم ينبع من نظام السوق، والطريقة التي يحدد بها هذا النظام أولوياته، وبالتالي ما يصدره من جزاءات، وما يمنحه من مكافآت»[٣٤].

الأفكار البراجماتية تعني الصراع المستمر بين جموع اللاعبين الذين لا يبحثون إلا عن الربح أو المنفعة، دون النظر إلى أيّ مبدأ وقيمة أخرى

والسؤال المطروح هو: إذا كان شيلر قد كتب هذا الكلام في سبعينيات أو ثمانينات القرن الماضي، فماذا كان يمكن أن يقوله الآن في عصر ثورة الاتصالات الذي يقوده القطب الواحد؟!!

ما الذي تعنيه هذه التهيئة للاستعباد بالنسبة للشعوب الإسلامية:

أولاً: الشعوب الإسلامية الفقيرة والسقوط بين رحى المطحنة:

إذا تحدثنا عن الأفكار البراجماتية وأنها تعني الصراع المستمر بين جموع اللاعبين الذين لا يبحثون سوى عن الربح أو المنفعة، دون النظر إلى أيّ مبدأ وقيمة أخرى؛ فإن نتائج هذه المسألة تكون أكثر بشاعة بالنسبة للدول الفقيرة عما يحدث في الدول الغنية؛ وذلك لأن حجم الربح أو المنفعة في تلك الدول أقل كثيرًا.

المسألة تعني أن النخبة البراجماتية المسيطرة يُفترض أن تكون أقل عددًا، والضحايا الخاسرون الساقطون في مطحنة الفقرة يُفترض أن يكونوا أكثر عددًا من نظرائهم في الدول الغنية.

وإذا كان مفكر شهير كالدكتور عبد الوهاب المسيري يتحدث عن أن هذه المنظومة الغربية صنعت من الإنسان الغربي ما يسمى الإنسان الطبيعي، أي الإنسان ذو البعد المادي الواحد المصمت روحيًا؛ فإن الأمر يختلف كثيرًا بالنسبة لتأثير هذه المنظومة على إنسان الشعوب الفقيرة؛ لأنه إذا كان الغربيون قد قايضوا مقوماتهم الروحية بمقوماتهم المادية؛ فإن الساقطين من أبناء هذه الشعوب قد قايضوا مقوماتهم جميعًا: الروحية والمادية معًا بلا شيء؛ حيث لا يصل إلى هذا الشيء إلا القلة النادرة جدًّا منهم، ومن ثَم تكون المحصلة في النهاية أن هذه المنظومة الغربية المسيطرة تنتج في بلدان تلك الشعوب الفقيرة كل يوم الأعداد الوفيرة من المسوخ البشرية التي تفقد مقوماتها الروحية، وكل ما تعرف من قيم ومبادئ بين مطرقة الإفقار المتعاظم وسندان الابتعاث الإعلامي الصارخ لشعار الغرائز والرغبات المتجددة التي لا يمكن تلبيتها أبدًا.

وهكذا يتم تكوين شعب في ذهول دائم؛ يفقد جزء كبير منه قيمه ومبادئه في البحث عن رغبات لا يمكن تحقيقها، والجزء الآخر الذي يتواضع في البحث فقط عن أشد حاجاته الإنسانية الضرورية، يظل متقوقعًا حول ذاته، فاقد الثقة في القدرة على الحصول على هذه الحاجات الملحة بشكل يومي، الأمر الذي لا يجعله يملك قدرة المخاطرة على التفكير في أي شيء آخر.

(٣٣) المرجع السابق: ص٢٥ -٢٦.
(٣٤) المرجع السابق: ص ٢٢ .

الأمـر الـذي يعـني أنـه في كل الحـالات أننـا أمـام جموع مذهولة دائمة يتقوقع أفرادها حول أنفسـهم، ولا يملكـون القدرة على التفكير في أي شـيء آخر، ومن ثَـم فهم مهيئـون تمامًا لتسـييرهم إلى أيّ جهـة يُرَاد لهم تسييرهم إليها، وهذه أعظم تهيئة للاستعباد.

بالنسبة للشعوب الإسلامية الغنية:

فضلاً عن الاستنزاف الدائم لأموال أبناء تلك الشعوب من خلال ألاعيب بورصات التجارة العالمية؛ فإن التركيز علـى أبناء هذه الشـعوب يتـم الآن أولاً من خلال صناعة الحاجـز العازل بينهم وبين الإسـلام؛ بإرهابهم المسـتمر من خلال الممارسات السياسية والإجراءات الاقتصادية، والضغوط الإعلامية بأن الاقتراب من الإسلام يؤدي بهم إلى الاتهـام بتهمـة الإرهـاب، وحرب أمريـكا العظمى عليهـم، وبذلك يتسـنى لهم تشـكيل عقـول أبناء هذه الأمة من خـلال القنوات الإعلامية الموجهـة مخابراتيًّا، والتي لا تنشـر فقـط الإباحية والفسـق والفسـاد كما يعتقد البعض، ولكن تعمل بشـكل مكثف على نشر العلمانية والإلحـاد، وإعلاء قيم المنفعة والربح والمفاهيم البراجماتية الأنانية، حتى سقط الكثيرون من أبناء هذه الشـعوب في تخدير الإلهاء الشـهواني الدائـم، والتقوقع الأناني حول الذات، وفقـدان الصلة بينهم وبين مصالح مجتمعهم الإسـلامي العريض، وبهذا التخدير يكونون أيضًا مهيئين للدخول في دائرة الاستعباد العالمي.

معلومات إضافية

الماسونية:

تعددت الآراء حول معنى الماسونية، فبعضهم رأى أنها اصطلاح يعني شعار الماسونية: (حرية- مساواة- إخاء- تعاون)، وبعضهم يرى أنه تعني (القوة الخفية)، وآخرون يرون بهذا الاسم رمزًا لأسماء مؤسسيها.

ويكاد الباحثون يُجمعون على أنها هي جمعية البنائين الأحرار التي وُجدت منذ أقدم العصور في مصر واليونان وفلسطين؛ وذلك لأن كلمة ماسونية من الكلمة الإنجليزية Mason التي تُكتب في العربية خطأً (ماسون) لكن الخطأ شاع، وتعني «البنَّاء»، ثم تضاف كلمة Free بمعنى حر، وتعني: البنَّاء الحر. وهناك بعض التفسيرات تذهب إلى أن كلمة (حر) تجيء لتمييز الـ«فري ميسون» أي البنَّاء الماهر في مقابل البنَّاء غير المدرب.

واصطلاحًا: تعرف الماسونية بأنها مجموعة من التعاليم الأخلاقية والمنظمات الأخوية السرية التي تمارس هذه التعاليم، والتي تضم البنائين الأحرار والبنائين المقبولين أو المنتسبين، أي الأعضاء الذين لا يمارسون حرفة البناء.

رموز الماسونية ووحداتها:

المثلث والفرجار والمسطرة والمقص والرافعة والنجمة الخماسية والأرقام ٣،٥،٧، وهي رموز وطقوس «تساعد على اكتشاف النور».

والوحدة الأساسية في التنظيمات الماسونية هي المحفل أو الورشة. ويحق لكل سبعة ماسونيين أن يشكّلوا محفلاً، والمحفل يمكن أن يضم خمسين عضوًا. وتعقد المحافل اجتماعًا دوريًا كل خمسة عشر يومًا يحضره المتدربون والعرفاء والمعلمون. أما ذوو الرتب العليا فيجتمعون على حدة في ورشات التجويد. ويفترض في المشاركين في الاجتماع أن يقبلوا بلباس معين، فهم يضعون في أيديهم قفازات بيضاء، ويزينون صدورهم بشريط عريض، ويربطون على خصورهم مآزر صغيرة، وقد يرتدون ثوبًا أسود طويلاً، أو بزة قاتمة اللون أو سموكينج بحسب تقاليد محافلهم، وهي تقاليد في غاية التعقيد والتنوع.

وتشكل المحافل اتحادات تدين بالولاء والطاعة لأحد المحافل الكبرى، ففي فرنسا على سبيل المثال خمسة محافل رئيسة كبرى، وهي: محفل الشرق الكبير، ومحفل فرنسا الكبير، والمحفل الوطني الفرنسي الكبير، والاتحاد الفرنسي للحقوق الإنسانية، ومحفل فرنسا الكبير للنساء.

قَسَم الجمعية:

عندما يتقرر قبول طالب للعضوية يتقدم ليقسم قسم الجمعية الذي يصبح بمقتضاه عضوًا عاملاً يؤدي واجبه ويتحمل مسئولياته. ونص القسم كالآتي:

«أقسم بمهندس الكون الأعظم أنني لا أفشي أسرار الماسونية، ولا علاماتها وأقوالها، ولا تعاليمها وعاداتها، وأن أصونها مكتومة في صدري إلى الأبد.

أقسم بمهندس الكون الأعظم ألا أخون عهد الجمعية وأسرارها، لا بالإشارة ولا بالكلام ولا بالحروف، وألا أكتب شيئًا منها ولا أنشره بالطبع أو بالحفر أو بالتصوير، وأرضى إن حنثت في قسمي أن تحرق شفتاي بحديد

ملتهب، وأن تقطع يداي ويجز عنقي وتعلق جثتي في محفل ماسوني ليراها طالب آخر؛ ليتعظ بها، ثم تحرق جثتي ويذر رمادها في الهواء؛ لئلا يبقى أثر من جنايتي».

الماسونية والصهيونية

الماسونية جمعية سرية يهودية مرت بمراحل عديدة، تهمنا منها مرحلة القرن الثامن عشر الذي شهد أول تأسيس منظم على يد اليهودي «أحيرام أبيود»، وضمت إليها «هيردوس الثاني» عدو المسيحية في ذلك الوقت. وعقد أول اجتماع لها عام ١٧٤٣م، وحضر هذا الاجتماع الملك (هيردوس) ومستشاراه اليهوديان (أحيرام أبيود، ومواب لافي).

ثم تلا هذا الاجتماع اجتماعات أخرى، وتعددت أوكار الماسونية في كل مكان من أوروبا باسم (الماسونية الزرقاء) وفي عام ١٧٧٠م اتصل عدد من اليهود المرابين بـ(آدم وايزهاويت) وكلفوه بمراجعة برتوكولات حكماء صهيون القديمة، وإعادة تنظيمها على أسس حديثة لتخدم عقيدة الإلحاد. ثم قام وايزهاويت بدعم من حكماء صهيون بتنظيم المحفل المكلف بقيادتها الذي كانت الخطوة التالية له تأسيس المحفل الماسوني، والذي عُرف باسم محفل الشرق الكبير، وأصبح يستقطب كل الجمعيات الماسونية القديمة في العالم، ويسيّرها إلى وجهة جديدة تخدم اليهود وأغراضهم وأحلامهم بتحقيق وطن قومي لهم ثم صيانة هذا الوطن.

وفي القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين الذي حدث فيه تطور للنفوذ اليهودي وتغلغل لسلطان اليهود عن طريق الماسونية في جميع الحكومات الأوروبية والأمريكية، فالماسونية تجد مكانًا خصبًا لدى الطائفة الإنجيلية.

ويقول (ألفريد ليلينتال) في كتابه (ثمن إسرائيل): لقد لعب العامل الديني دورًا مهمًّا في إقرار التقسيم، وخاصة لدى الطائفة الإنجيلية المستمدة تعاليمها عن التوراة، وكان هذا العامل من جملة العوامل التي حملت إيرل بلفور والجنرال سمطس على تأييد إقامة وطن قومي يهودي في الأراضي المقدسة.

وفي سنة ١٧٧١ أعاد اليهود النظر في تعاليم الماسونية ورموزها، وغيّروا فيها لتناسب الجو البروتستانتي في بريطانيا والولايات المتحدة. وقد كشف المحفل الماسوني الأعظم عن بعض نواياه حين جعل من أهداف الماسونية:

١- المحافظة على اليهودية.

٢- محاربة الأديان بصورة عامة والكثلكة بصورة خاصة.

٣- بث روح الإلحاد والإباحية بين الشعوب.

ثم بدأت اليهودية العالمية بمد الجمعيات الماسونية برجال الفكر والدهاء والمكر، فيلبسون لكل عصر لبوسه الملائم. بل لهم طرق في خداع الشعوب إذا لمسوا فيهم الإحساس بخطر الماسونية؛ لأن غاية الماسونية تأسيس جمهوريات علمانية تتخذ الوصولية والنفعية أساسًا لاتحادها، كما جاء في قرار المؤتمر الماسوني المنعقد في باريس عام ١٩٠٠م.

وجاء في قرار محافل الماسونية عام ١٨٨٤م: «يجب على الماسونيين الذين بيدهم زمام الأمور أن يأتوا بالماسونيين إلى سدة الحكم، وأن يقربوهم من كراسيه، وأن يُكثروا من عددهم فيه، وفي وسع الماسوني أن يكون مواطنًا أو نائبًا أو رئيسًا بشرط أن يكون ماسونيًّا، وعليه أن يستلهم الأفكار الماسونية، ومهما علت مكانته الاجتماعية فإنه يستوحي مذهبه من المحفل الماسوني لا من مكانته.

درجات الماسونيين:

والماسونيون ليسوا كلهم على درجة واحدة، ولكنهم على ثلاث درجات:

الأولى: التلميذ أو الصبي (الملتحق أو المتدرب).

الثانية: زميل المهنة أو الصنعة (الرفيق).

الثالثة: البنَّاء الأعظم أو الأستاذ (بمعنى أستاذ في الصنعة).

وأضيف إلى الدرجات الثلاث درجة أخرى أساسية هي (القوس المقدس الأعظم)، وهناك في بعض المحافل تصل إلى ثلاث وثلاثين درجة، كما هو الحال في الطقس الاسكتلندي القديم، وتصل أحيانًا عدد الدرجات إلى بضعة آلاف.

الماسونية النسائية:

يقول الدكتور «جان مينو»: «وقد أُنشئ للروتاري فرع نسائي عام ١٩٢٨م يسمى الجمعية الدولية للمتفائلات Soroptimiste (سوروبتمست).

ولا شك أن هذا النادي هو فرع ماسوني ثانٍ للحركة النسائية الروتارية غير فرع سيدات الروتاري باسم «إينرويل» Inner wheel لم تورد كل الوثائق التي لدي شيئًا عن تاريخه يمكن أن ننتفع بها».

وفي إنجلترا تأسست أول مدرسة ماسونية للنساء عرفت باسم «مدرسة بنات الإخوة الماسونيين» برعاية «راسبيني» ومساعدة العائلة الملوكية، وخاصة «دوتش أوف كيرلند» الذي دعيت باسمهم المدرسة فيما بعد «مدرسة كيرلند الملوكية»، ومازالت باقية تمارس نشاطها تحت رعاية ملكة إنجلترا، وقد عاد اسمها الأول «مدرسة البنات الماسونية».

وتعرف أندية الروتاري النسائية باسم «الإنرويل»، وهي خاصة بالنساء فوق ٢٨ سنة، أما اللاتي لم يبلغن هذا السن فيضمهن تنظيم مختلط يعرف باسم «الروترآكت»، أما الشباب من الجنسين في عمر المراهقة من ١٤-١٨ سنة فيضمهم تنظيم يسمى «الانترآكت»، وقد سُمح مؤخرًا بأن يضم التنظيم كافة الطلائع الصغيرة التي تبدأ بعمر الحضانة أو المدرسة الابتدائية.

وأهم النوادي الماسونية:

الروتاري.

الليونز.

الكوائي.

الاكستشتنج.. وغيرها.

المصدر:

الموسوعة الإسلامية العامة، وزارة الأوقاف المصرية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.